بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

للدكتور مهدى علام

من مكتبتى

وهذه فذلكة أخرى عن صديق قديم من أصدقائى فى مكتبتى ، رأيت فيه ما يسعدنى أن أقاسم فيه قراء مجلتنا الأجلاء . وهم يعلمون أن الإنسان السوى (وأرجو أن أكون كذلك) لا يروقه أن يستأثر بخيرات الحياة ، مادية كانت أو معنوية ، حتى إننا نجد أن الشخص الأريب إذا سمع نكتة لطيفة لم يهدأ له بال حتى يجد أول صديق يقابله ليقول له : أسمعت أحدث نكتة ؟ ، ثم يقصها عليه .

وفى الكتاب الذى أتحدث عنه اليوم طرائف كثيرة ، قصها مؤلفه ، واستمتعت بقراءتها منذ نحو نصف قرن ، وقصصت بعضها فى مناسبات بعد ذلك .

هذا كتاب ألفه أحد رجال السلك السياسى الإنجليزى فى أواخر القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن الحالى . اسم الكتاب « دبلوماسى فى الشرق » واسم مؤلفه السير آرثر هاردنج[1] وهو يقص ذكرياته فى المناصب التى شغلها فى القسطنطينية ومصر وزنجبار وأفريقيا الشرقية ، وثورة العرب فى تلك المنطقة ، ومعركة قوانين تحرير العبيد ، والاضطرابات فى جوبا لاند وأوغنده ، وجنوب أفريقيا ، وإيران (أو بلاد فارس كما كانت تسمى حينئذ) .

وكان عصر هذا السيد فى خدمته عصر ، جزءا من عصر السير إيفيان بارنج[2] الذى سمى فيما بعد (اللورد كرومر) .

---

(1) A Diplomatist in the East, by Sir Arthur H. Hardinge.

(2) Evelyn Baring.

وأنا فى غنى عن بيان أن هذا الدبلوماسى كان يمثل المصالح الإنجليزية حيثما ذهب ، وأنه فى معظم مواقفه كان يمثل الفكر الاستعمارى البريطانى الذى كان سائدا فى الحقبة التى تناولها الكتاب .

وحسبى أن أنقل الفقرة التى بدأ بها الفصل الخاص بعمله فى مصر :

«كان رئيسى فى مصر هو السير إيفلين بارنج (اللورد كرومر) ، الذى كان يمثل ما وُفّق فى وصفه اللورد ملنر بأنه الحماية المقنعة لإنجلترا على مصر . (١) ويواصل المؤلف وصفه لرئيسه كرومر قائلا : رجل قوى ، قليل الكلام ، ولكنه على استعداد دائما للحل الوسط ، جندى بحكم مهنته فى الحقبة الأولى من حياته . وهو مع ذلك أميل إلى التسامح حيث يكون ذلك بعيداً عن المصالح المهمة لدولته . كان من الجناح السياسى المعتدل لحزب الأحرار(٢) . كما كان دارساً متعمقاً للشعائر والأوضاع للقوانين الإسلامية . وربما كان أقوى ممثل أرسلته حكومته للقاهرة » .

وينتقل المؤلف إلى الحديث عن الخديو توفيق فيقول رأيه : «كان رجلا طيباً ، ولكنه كان حاكماً ضعيفا . وكانت قوة الشخصية سمة كل من سبقوه من حكام مصر ، ولاة من قبل الخليفة فى تركيا ، منذ أن أصبحت مصر ولاية مستقلة استقلالا ذاتياً ، فى نطاق الإمبراطورية العثمانية .

« فمحمد على مؤسس الأسرة الحاكمة ، كان يحكم أساسياً بالإرهاب . فعندما كانت بعض الإصلاحات التى ينشئها تثير المعارضة بين بعض المحافظين من ذوى الآراء المتخلفة ، كان سريع الحسم فى القضاء على هذه المعارضة . فعندما كان المستر روجرز ، القنصل العام البريطانى ، فى زيارة رسمية لمحمد على ، أدهشه أنه لاحظ عندما اقترب من القلعة الشاهقة التى كان الوالى يقيم فيها ، أن عشرا أو اثنتى عشرة جثة معلقة من المشانق ، وأن على صدر

---

(١) كان هذا فى سنة ١٨٨٥ ويشاء القدر أن يكشف عن هذه الحقيقة الخاصة برأى ملنر فى « الحماية » فى سنة ١٩٢٠ عندما كان رئيسا للجنة المعروفة باسمه ، والتى جاءت إلى مصر إبان ثورة ١٩١٩ لما سمته التحقيق فى أسباب الثورة ، ولما لم تنجح فى الاتصال بالشعب المصرى عادت مخفقة إلى إنجلترة ، ولكن المفاوضات التى نشأت بين وفد مصر برياسة الزعيم سعد زغلول ، والحكومة البريطانية ممثلة فى اللورد ملنر ، تحطمت جميع مراحلها على صخرة « الحماية » التى كانت مصر تصر على طلب النص على إلغائها (وكان القناع قد نزع عنها فى ١٨ من ديسمبر ١٩١٤) ، ولكن ملنر الذى وصفها بأنها مقنعة قبل ذلك بثلث قرن ، لم يكن لينزل عنها وضعف. وقد رفع عنها القناع .

(٢) حزب قوى كان يقاسم حزب المحافظين السلطة والنفوذ فى بريطانيا حتى ضعف بظهور حزب العمال واعتناقه معظم مبادئ الأحرار . واسمه القديم WHIG والحديث LIBERAL

كل جثة منها رقعة كتب فيها : (مشنوق لمعارضته لإصلاحات الباشا) » وقد سأل هذا القنصل العام ، محمد على باشا ، عن نوع النقد الذى وجهه هؤلاء الضحايا للإصلاحات ، فأجاب الباشا : لا شيء مطلقا ، إنهم لم ينطقوا بكلمة خير أو شر تتصل بالسياسة . ولكننى سمعت أن هناك كلاما معاديا لحكومتى يتردد بين المشايخ العلماء وغيرهم من أصحاب النفوذ ، ورأيت أن أقضى على ذلك فى مهده ، فطلبت من رجال شرطتى أن يلقوا القبض على نحو عشرين من أعتى المجرمين سمعة ، وأشنعهم سلوكاً ، وأحطهم أخلاقاً ، فى القاهرة . وأن يعلقوهم على المشانق كما رأيت ؛ ليكون فى ذلك عظة سريعة لكل من تحدثه نفسه بالاعتراض على حكومتى . وقد علمت أن هذا الإجراء الاحتياطى الحكيم قد أدى التحذير المطلوب . »

ثم ينتقل المؤلف فى وصف من خلفوا محمد على حتى يصل إلى توفيق : وهنا يروى هذه القصة : أنه فى مستهل سنة ١٨٩١ مرض الخديو توفيق مرضا شديدا . ومع أن عددا من الأطباء الأوربيين استدعى لعلاجه ، وفيهم طبيب إنجليزى وآخر ألمانى ، لم يزده علاجهم إلا مرضا . وأخيرا نصح أن يستشفى بمياه حلوان ، وهى قرية صغيرة على مسافة قصيرة من العاصمة .

وأرسل السير إيفلين بارنج برقية إلى وزارة الخارجية فى لندن يذكر فيها أنه زار الخديو توفيق فى حلوان . وكانت البرقية طبعاً بالشفرة ، فلما وصلت البرقية وحلت رموزها عرضت على وزير الخارجية بما ترجمته : « لقد عدت الآن من زيارة لجهنم (HELL) حيث يوجد الخديو الآن . وسموه فى أشد العذاب ، ويبدو أنه ليس هناك ما يمكن أن يخفف من عذابه » .

وقد اتضح أن موظف الشفرة قد خلط بين مجموعتين من الأرقام إحداهما تعبر عن كلمة حلوان : (هلوان) (HELUAN) والأخرى تعبر عن جهنم (HELL) . ولكن الانطباع الأول فى الوزارة كان أن الخديو قد مات وأنه يلقى عذاب الجحيم . وبعد أن ينقل المؤلف تعليقات (دونينج ستريت) على البرقية قبل تصويبها وبعده ، ينتقل إلى وصف حالة نشأت فى قصر الخديو فى مصر . ذلك أن زوجته المفضلة زارها أحد المشايخ من مسجد من مساجد القاهرة ، وأخبرها أنه رأى فى منامه أن الخديو يتقلب فى ضروب من العذاب على أيدى الملكين اللذين يحاسبان الميت عقب وفاته ، وواسى ذلك الشيخ هذه الزوجة الحزينة بقوله : إن عقاب الخديو يمكن أن ينتهى إذا كانت هذه الأرملة تتقرب إلى الله بمنح هبة

سخية لأحد مساجد القاهرة . وما إن بذلت هذه المنحة حتى قص عليها ذلك الشيخ أنه رأى مناما آخر يواسيها فيه بأنه رأى الخديو فى نعيم شامل مع الحور العين فى الجنة ، وهى رؤيا لم يكن لها الأثر المرجو من العزاء لزوجة غيور على زوجها .

ومما تضمنه الفصل الخاص بمصر ما ذكره المؤلف عن وريث العرش بعد وفاة الخديو توفيق ، وهو عباس حلمى . وكان فى ذلك الوقت يدرس فى النمسا هو وأخوه الأصغر الأمير محمد على . ويصف المؤلف ذلك الوريث للعرش بأنه بمجرد أن علم بوفاة والده ، اعتد بمركزه ، وشرع يعامل أخاه الأمير محمد على بصلف وكبرياء يصلان إلى درجة الاحتقار . فعندما صعدا فى السفينة التى أبحرت بهما إلى الإسكندرية ، أكد منزلته الخديوية ، ففى أول ليلة كان الأخوان على ظهر الباخرة النمساوية اتخذ عباس حلمى مجلسه إلى مائدة العشاء ، وجاء أخوه محمد على فاتخذ لنفسه مقعدا إلى نفس المائدة . فكان نصيبه دفقة من التأنيب العنيف من الخديو الجديد ، قائلا له : افهم ، يا محمد على بك ، إن رعاياى لا يجلسون إلى مائدتى إلا إذا وجهت إليهم دعوة خاصة منى بصفتى مليكهم .

وهذا الأمير المتغطرس حتى على أخيه ، لقى من الإهانة ما تعجب له على يد ولى نعمته سلطان تركيا وخليفة المسلمين . فمؤلف الكتاب يذكر لنا أن عباس حلمى كان عليه أن يذهب إلى القسطنطينية (إستنبول) ليتلقى من « أمير المؤمنين » ولايته لعرش مصر . وقد قص على المؤلف أحد أعضاء « المعية الخديوية » التى صحبت الخديو إلى عاصمة الخلافة قصة الإهانات التى وجهت إليه وهو هناك . فعندما وصل إلى « القرن الذهبى » ، بقى عدة أيام فى انتظار الإذن له بالمقابلة ، على أساس أن جلالة الخليفة أشغل بالا من أن يتذكر اسمه أو يجد وقتا لمقابلته . وبعد موالاة الإلحاح منه ، والرفض من حكومة الخلافة ، سمح له بمقابلة « الصدر الأعظم » (أى رئيس الوزراء) لبضع دقائق كان فى أثنائها موضع الازدراء المخطط . ولما حان الوقت الذى أذن فيه له بمقابلة السلطان ، صحبته هو ومعيته فرقة الموظفين الأتراك ، وقادوهم إلى حجرة ضيقة منخفضة السقف إلى درجة أنه يستحيل المرور منها على أى شخص — إذا لم يكن قزما — إلا بخفض الرأس نحو الأرض . وبعد أن دخل الخديو راكعا يكاد رأسه يلتقى مع ركبتيه ، ترك هكذا راكعا ، والسلطان لا يلتفت إليه ، بل كان يتحدث فى همس مع رئيس الوزراء الذى كان

جالسا على حشية بجانب قدمي مولاه . وبعد نحو عشر دقائق ، همس رئيس الوزراء في أذن السلطان بأن عبدا مسكينا من القاهرة ، قد حضر ليركع أمام أمير المؤمنين . فأجاب أمير المؤمنين قل له : نظراً لخدماته ، فإنني شئت أن أمنحه حكم مصر مدى حياته . ثم أزيح الخديو هو ومعيته من باب تلك الحجرة الضيقة .

ويضيف المؤلف أن الخديو لم يحظ مرة واحدة بعد ذلك بمقابلة السلطان مع تعدد زياراته للعاصمة العثمانية ، وتدفق هداياه الثمينة لكبار الموظفين في « الباب العالي » .

أعتقد أنني أطلت فيما كنت أقصد أن يكون مجرد فذلكة عن كتاب له في نفسي ذكريات منذ قراءته من نصف قرن تقريبا . ولكن خبرين من أخباره يلحان على أن أذكرهما : أحدهما عن رئيس وزراء مصرى سابق وهو مصطفى فهمي باشا . فقد كتب عنه أنه من أصل ألباني ، وأنه كان عميق الثقافة ، كريم المحضر ، رقيق الحاشية ، وأنهم يقصون عنه أنه، في حكم الخديو إسماعيل، كُلِّف أن يساهم في القضاء على إسماعيل باشا صدّيق المفتش الذى بلغ به الإسراف والسفه مبلغا حمل مولاه الخديو إسماعيل على طلب التخلص منه ، وأن مصطفى باشا فهمي ألقى القبض عليه بنفسه، وأن أحد إبهاميه كان يحمل أثر أسنان إسماعيل المفتش الذى عضه حتى العظم في أثناء معركة القبض عليه . ولكن مؤلفنا « آرثر هاردنج » يستبعد هذه القصة ، على أساس أن أخلاق مصطفى فهمي وسمته وسماته لا يمكن أن ترشحه لمثل هذا التكليف . ويؤيده في شكه هذا أنني وجدت أحد المعاصرين لكل من مصطفى فهمي باشا والسير آرثر هاردنج ، يروى هذه القصة ثم يردفها باستبعاد صدقها . ذلك هو الدبلوماسي البريطاني المستشرق بلنت (Blunt) الذى سأذكره قبل الانتهاء من هذا التصدير . فهو يقول في كتابه « التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى لمصر[1] » (ص ٣٩ — ٤١) ما ملخصه أن الخديو أراد أن يتستر على ما ارتكبه من الغش في تقاريره التي كان يقدمها إلى المندوبين الأوربيين الذين كانوا يقومون بفحص المركز المالي للبلاد . وحدث أن إحدى اللجان علمت من رياض باشا أن تزويرا قد حدث فيما قدم إليها . وهنا خشي الخديو

(1) Secret History of the English Occupation of Egypt.

أن يبوح وزير ماليته إسماعيل باشا المفتش بالحقائق . فرتب طريق الخلاص منه : فدعاه للركوب معه إلى أحد قصوره . وعند وصولها تعلل الخديو بعذر لخروجه من الحجرة ، تاركا المفتش وحده ، ثم أرسل إليه ابنيه (حسين وحسن) وياوره (مصطفى بك فهمى) : وبعد أن ضربه الأميران الشابان تعجلا به إلى باخرة كانت على استعداد للإبحار ، وبعد مقاومة عنيفة قتل الرجل :

ويقول بلنْت إن السير ريفرز ولسون يعزو قتل المفتش لمصطفى فهمى بناء على أوامر مولاه الخديو ، وأنه أكد ذلك مما حدث لمصطفى فهمى بعد هذه الحادثة من أنه أصيب بحمى شديدة ، وفى أثناء هذيانه قص القصة . ويعلق بلنْت على ذلك بأن مصطفى فهمى لم يفعل سوى تسليم المفتش لإسحاق بك . ويقول بعض المعاصرين إن المفتش ألقى به فى النيل بعد أن ربط فى قدمه حجر ، وهو عمل كان متبعا مع بعض الناس . ويقول بلنت ، آخر الأمر : إن المؤكد هو أن مصطفى فهمى ، ذلك الشاب الهادئ الطبع الذى لم يألف مناظر العنف ، والذى يرجع أصله إلى العنصر الجزائرى ، مثله فى ذلك مثل المفتش ، قد أصابه الهلع عندما علم بالدور الذى كُلِّف القيام به ، وأن ذلك أدى به إلى مرض خطير طويل المدى :

أما الشخصية الأخرى التى كتب عنها مؤلف كتابنا الذى نتحدث عنه فهى شخصية بلنْت الذى أشرت إليه فى تأييد المؤلف فى الموضوع الخاص باغتيال إسماعيل باشا المفتش : وهى شخصية معروفة لكثير من المصريين المعاصرين ، أو المطلعين على تاريخ مصر الحديث ذلك هو ويلفريد بلنت (Wilfred Blunt) الذى يقول عنه مؤلف كتابنا : « إنه ألد أعداء الدبلوماسية البريطانية فى مصر : كان لامع الذكاء مع ميل إلى التطرف ، من أنصار الحركة الوطنية الإيرلندية . كان كاثوليكيا عميق الإيمان ، ولكنه فى الوقت نفسه من أعلم الناس وأعظمهم إعجابا بالإسلام . كان له مسكن بضاحية المطرية ، بالقرب من القاهرة ، وكان هو وزوجته يلبسان الملابس الشرقية إلا فى حضور قداس الكنيسة أو فى وليمة رسمية :

« وكان من أقوى المؤيدين للحركة الوطنية فى مصر ، ومن أشد الناس بغضا للشعب البريطانى ، وللإمبراطورية البريطانية » :

بقى أن أقول إن (بلنت) هذا قد ضمّن صداقته وعلاقته بمصر ، وبكفاحها، وعلى الخصوص الثورة العرابية ، كتابه الذى أشرت إليه، وهذا الكتاب ظهرت له ترجمة عربية فى عام ١٩٢٩ وقد صدر بمقدمة ممتازة فى أكثر من مائة صفحة بقلم الصحفى المعروف، الأستاذ عبد القادر حمزة . أما ترجمة الكتاب فإنها سيئة ، لأن الذى قام بها مترجمو الجريدة فى ذلك العهد ، ترجموها فصولا متناثرة ، بأقلام مختلفة . وربما يكون له طبعة أخرى لم أبحث عنها[1] .

محمد مهدى علام
الأمين العام للمجمع
والمشرف على المجلة

(١) ويجدر بى أن أشير إلى حقيقة وقفت عليها اليوم مصادفة . فبينما كنت أقلب أحد « أصدقاء مكتبتى » هربا من قيظ الحر ومهادنة لمشقة رمضان ، وجدت فى ذلك الكتاب تلك الحقيقة المبهمة . واسم الكتاب « دليل الكتب للمؤلفين البريطانيين » من سنة ١٩٠٠ حتى ١٩٣٢ (KEY BOOKS OF BRITISH AUTHORS) تأليف ANDREW BLOCK جاء فى ص ٤٨ (طبعة ١٩٣٣) تحت اسم « بلنت » أن أعظم كتبه هو « يومياتى : وهى تسجيل شخصى للأحداث» (My Diaries, Being a Personal Narrative of Events) وأن هذا الكتاب نشر فى لندن ١٩١٩ – ١٩٢٠ ولكن المجلد الأول سحب من التوزيع . ويبدو أن النسخة المترجمة وكذلك الأصل الانجليزى الذى بين أيدينا ليس إلا المجلد الثانى . ويمكننا أن نخمن، فى شىء من الاطمئنان، أن سبب سحب المجلد الأول من التوزيع هو اشتماله على ما يكنه المؤلف من بغض ونقد لبريطانيا وإمبراطوريتها ، وأن هذا الجزء لابد أنه كان مشتملا على بعض فظائع الاستعمار . ويزكى استنتاجنا هذا أن سحب ذلك المجلد كان إبان ثورة ١٩١٩ التى اندلعت فى مصر ، وعاصرتها ثورة الهند .